قال الحق ذلك مع أنه قال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . وحتى نفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ، والثانى هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أى لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو لُطف موقع الشيء وقربه إلى النفس فيصنمه الإنسان على طريقة لا تنبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » فى القرآن جاءت فى مجال الخسران والضلال . وعندما نقرأ قوله الحق : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ .

وهو القائل سبحانه : ﴿ واتبع هواه فتردى ﴾ .

وقد جاء الهوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

أى أن المطلوب أن يطوِّع الإنسان هواه لمطلوب الله . ومادام قد طوَّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . إنّ هذا هو النهى عن اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً فى الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ ﴾

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح ، والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ؛ لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤيد هذا ، فها هوذا موقفهم من نبى الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة بهؤلاء الرسل الذين نالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هى طبيعة فيهم ، ويبسط سبحانه فى التسرية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التى لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول : إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » . وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً . وكان لهم أن يتعجبوا من موقفهم هذا ، ومن صدهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فعندما يكون هناك شىء ثمين ونفيس فلا يُؤمَن عليه إلا محمد بن عبدالله .

ما هذا الأمر العجيب إذن !!

لقد عرفوا صدق النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ـ ما فى ذلك ريب ـ ولكن لأن لهم أهواء أصرّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية . هم يعرفون أن محمدا هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع علياً ـ كرم الله وجهه ـ ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) . أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين . أنت عندهم يا رسول الله

فى منتهى السمو الخلقى . ولو لم تقل إنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك الملك طواعية . وعرضوا عليك الثروة . وزينوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخل عن الرسالة . لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه على الرغم مما فيه من متاعب ، تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جاءوا ليحاصروك فى الشّعب ليمارسوا معك الحصار الاقتصادى بتجويعك وتجويع من معك ، ومع هذا كله ما تنازلت عن البلاغ . وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً ، لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أهلك . وكان يجب أن يتساءلوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية ؛ فلا أنت طالب جاه ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمتعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ؛ لأنه خاتم الأنبياء ؛ لذلك يتمثل فيه خير كل من سبقه من الأنبياء . يتمثل فيه على سبيل المثال ما قاله سليمان لوفد بلقيس ملكة سبأ :

﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

إذن كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناس إلى السماء وإلى منهجها ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين يشقون بمخالفتهم منهج الله .

وليجرد كل إنسان نفسه من كل شىء ولينظر إلى المنهج ولسوف يجد أنه فى صالحه . فها هوذا سليمان الذى دانت له الدنيا وأُعطِىَ ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقى للعبيد ليستمتعوا بالطيبات ، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه المناهج ليست لصالح نبى ، ولكن كل نبى إنما يريد بالمنهج صالحَ مَن أُرسل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لنبى الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا فى يوم السبت فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الحق قردة ، ولعنهم فى الزبور ، وكذلك قالوا الإفك فى مريم البتول ولعنهم الله فى الإنجيل ، ولم يكن اللعن إلا بناءً على ما فعلوا ؛ لذلك يذيل الحق الآية بالقول : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان - كما نعلم - هو العصيان فى ذات الإنسان وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحاقد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتشى فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، المعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثرة إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض . وقد جعل الحق سبحانه فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة على أى لون سواء فى الجنس أو فى المال أو فى الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق ، ولا يمنعه من ذلك إلا الضمير الذى يفرض عليه أن يسير فى الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خميرة الإيمان ، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن ندقق فى هذا القول القرآنى لأنه يحمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالتها المتقلبة ، فها هوذا قابيل يتحدث عنه القرآن :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ما يقول عنه القرآن :

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

فبعد أن غواه غضبه إلى أن قتل أخاه وسلبه الحياة . يبعث الله له غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . وانتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه فى الحياة فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالا مزاجيا يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك تجد كثيراً من الناس تعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصى ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لآخر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للتنفيس ؛ لأن كل حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يغضبك أحد فأنت تنزع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يغضبك أحد أن تغير من وضعك وقل : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . حتى تصرف الطاقة السعارية عندك ، فإن أغضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعدا فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً فى مكان فلتسر بضع خطوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة الغضب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة الفائضة الزائدة التى تسبب لك الغليان فتقل حدّة الغضب .

ولذلك فالشاعر العربى ينصح كل مستمع للشكوى ألا يرد السماع بل يصغى لصاحب الشكوى ، لذلك يقول :

ولا بـد من شكوى إلى ذى مـروءة
يـواسيـك أو يسليـك أو يتـوجـع

وحينما تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فأنت تريحه ، وتهديه إلى الاطمئنان . وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعها عند ذى المروءة ؛ لأن ذا المروءة إنما يعطيك أذنه ومشاعره وهو جدير أن تستأمنه على السرّ ، وكأن الأسرار فى خزانة لن يعرف أحد ما بداخلها ، ويمثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله إلى شىء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا نجد من ينهها أو ينهاها ، فالسوء يعم وينتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب فى إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، والتناهى عن المنكر إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ولا يظنن المؤمن أنه بمنجاة عن خاطر السوء فى نفسه لأن كلاً منا بشر . وعرضة للأغيار ، ومن لطف الله لحظة أن يهب خاطر السوء على مؤمن أن يجد أخاً خالياً من خواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ؛ لأن الفرد إن جاءه سعار الشهوة فى اللحظة التى يجىء فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتفقان على المنكر ، أما إن جاء سعار الشهوة لإنسان وكان صديقه مؤمناً خاليا من خواطر السوء ، فهو ينهاه ويوصيه بالحق والصبر . وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى ؛ فمرة يكون الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منهياً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التواصى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل كل واحد منا عرضة أن يكون ناهيا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضا لأن يكون منهياً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك نتبادل النهى

والتناهى ، ويسمون ذلك « المفاعلة » مثلما نقول : « شارك زيد عمرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصا قد كان فاعلا مرة ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة التفاعل هذه ؟. إنها مثل « تشارك » و« تضارب » أى أن يأتى الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن ينهى إنسان صديقاً له أو ينهاه صديق له ، وقد نفسرها على أن الجميع ينهى نفسه بفعل القوة الخفية الفطرية التى توجد فى كل نفس ، أى أن كل نفس تنهى نفسها . إذن فالتفاعل إما أن يكون فى النفس وإما أن يكون فى المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولنتنبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون التناهى عن المنكر ؟. يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أى أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها فى ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وهذا القول لا يعنى أبداً أن يتوضأ الإنسان بعد أن يدخل فى الصلاة . إنما يعنى أن نبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأداءها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة . ويلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم . وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول :« لا » لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبئس » فلنعرف أن اللام إذا سبقت فهى للقسم ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للقضية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟ . لا . فليس أحد منا كالله ، ونحن فى حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضى لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وحين يأتى الحق بالحكم فهو يأتى به على معرفة بالخلق . وعدم التناهى عن المنكر هو فعل وقول معا . وبما أن الحق لم يقل : لبئس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقابل للفعل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والفعل هو عمل الجوارح كلها ، ويجمع القول والفعل وصف « العمل » . ونلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هى عمل قد نتج عن فعل .

ولنر الحديث النبوى القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

وقوله الحق : « لبئس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقبيح قولاً وعملاً .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ونلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل مثل قوله الحق :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾
(من الآية ٧٨ سورة المائدة)

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى والترمذى ، وابن ماجه عن أبى سعيد .

وبين الواقع الذى يجرى فى زمن رسول الله ؛ فالخبر الأول هو خبر عن أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء يا رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت عليها نفوسهم ، كيف ؟ نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى ، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان فى الحياة ، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون مسخراً للإنسان ويريد أن يظل الإنسان حارساً لصلاح الكون أو أن يزيد صلاح الكون وألا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمى حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا فى الكون دائماً لصالحنا ؛ ولا يوجد عمل يفعله مخلوق يأتى للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كمالاته ـ سبحانه ـ ؛ لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذى خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزده سبحانه شيئا ، فهو ـ سبحانه ـ مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ ليحارب معسكرات هى معسكر أهل الشرك فى مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض فى أهل الكتاب أن لهم صلة بالسماء ولهم إلف بمناهج الرسل . وبمعجزات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا الدخول فى الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمروا الكفر .

وعندما نتوقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعى أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذى يقوى من صلة السماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهوا بمقدم النبى قبل أن تأتى الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتى سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفى ذلك جاء قول الحق :

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

وقالت لهم كتبهم : إن النبى إنما يأتى فى أرض ذات نخيل ، وهذا ينطبق على مكان مبعثه صلى الله عليه وسلم . إذن فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التى سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطتهم الزمنية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريفهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الربانى ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج للملك ينصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية ولم يعد لهم الجاه ، ووحّد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يعيشون على الشقاق بينهما ، ببيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجىء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال فى مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم .

وفى ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأبهة والرئاسة وسدة الحكم . وها هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثراء ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم فى ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : إنك من أهل الكتاب ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدى من محمد سبيلا !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلا ؟ .

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم . وتعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويعينونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه بئس ما زينت لهم النفس الأمارة بالسوء ، لأنهم افتقدوا النفس اللوامة ، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » وينشأ عن السخط الابتعاد عن طريق الهداية . والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد . كأن الحق يوضح لهم : على فرض أنكم أخذتم متاعاً قليلا فى الحياة ، ولكنكم أتيتم لأنفسكم بمتاعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالمنهج المنزل من الله ، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ونلحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقْسم لرسوله صلى الله عليه وسلم أن واقع الحياة مع فرقتين كاليهود والنصارى سيتجلى واضحاً على الرغم من أن كل جانب منهما مخالف لرسول الله فى ناحية ، فمواجيد هؤلاء الناس وأهواؤهم مختلفة ولكنهم اتفقوا جميعا فى الهدف .

فاليهود أشد عداوة لأنهم أخذوا سلطة زمنية جعلتهم السادة فى المنطقة ، أما النصارى فلم تكن لهم سيادة ولا سلطة زمنية وكانوا عاكفين فى صوامعهم وبيعهم يعبدون الله . والجانب الذى ليس له سلطة زمنية لا يعادى من جاء ليسحب من أهل الجور سلطتهم الزمنية ويقيم العدل بين الناس . فما العلّة فى ذلك ؟

يقول الحق : « ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » . و« القسيسون » جمع قَس وهو المتفرغ للعلم الربانى . و« الرهبان » هم الذين تفرغوا للعبادة . فكأن القسيس مهمته أن يعلم العلم . والراهب مهمته أن ينفذ مطلوب العلم ويترهبن .